نفسية جرير من خلال فن النقائض

د. جليل رشيد فالح
كلية الآداب / جامعة الموصل

بواعث البحث :

اعتادت دراساتنا الاكاديمية في تاريخ الأدب ان تعتمد جملة من الاخبار مادة مسلما بها تردد على الاسماع جيلا بعد جيل، الى جانب جملة من النتاج الادبي شعراً ونثراً تدرس دراسة تقليدية قائمة على بيان ماوضح من المعاني والافكار دون التوغل في اعماق هذه النصوص واستكناه عالمها الداخلي والربط بين مقدماتها ونتائجها، ومن غير استرشاد بأسس التمييز بين صالح هذه المادة وفاسدها ،ومقدار دلالة هذا النتاج على نفسيات أصحابها من خلال الرموز والشيات، وموحيات الألفاظ والتراكيب الفنية ،وكذلك مقدار الترابط بين الواقع الذي يحياه الشاعر والناس وبين مضامين هذا النتاج الأدبي .

كل هذه الأمور مازالت غائبة عن مناهج دراستنا للأدب العربي، مما يجعل مثل هذه الدراسات عقيمة الفوائد غير مفضية الى مايتوخى في هذه الدراسات من نتائج تربي العقول على الاستنباط والتوغل في اعماق النصوص ومدارسة اجوائها الداخلية، أو ان

تربي النفوس على تذوق الدلالات واللمحات الفنية والصورة الجميلة البارعة بايحاءاتها وملامحها الحية، او ان تعوّد الدارس على عدم التسليم بالمقولات والاحكام الجاهزة التي تمثل تصورات معينة بمقاييس نقدية خضعت لتطور الحياة في مختلف مضامينها. ومن جملة ماتداولته مصادرنا الأدبية موضوع النقائض بين المثلث الأموي جرير والفرزدق والأخطل، وما افاضت فيه من حديث يشكل في اغلب مادته اسرافاً يصور الموضوع على انه صدى عميق لمعركة كان لها ايغال في عمق الزمن وامتداد في رقعة الحياة العربية الاسلامية، كما ان هذه الدراسات قد رسمت للدارسين صورة سلبية لهذه الحياة من خلال مادة النقائض حين ارادت ان تشخص — وبعنف مسرف — قوة الانحراف في اخلاق الناس وسلوكهم وعقيدتهم، مما جعل مجتمعاتهم تنبت مثل هذا النبات السيء المتمثل في هذا اللون من الشعر بحيث ترحب به وتجعله مادة من مواد المقارعة بين القبائل التي عادت الى الجاهلية اعنف ماتكون العودة وانقلبت على قيمها ومثلها اسوأ مايكون المنقلب.

ان مادة النقائض مادة كثيرة لاسبيل الى التنكر لها أو حملها على محمل الانتحال. فذلك أمر ينوء به الكاهل ولا يفضي الى نتيجة، بل الذي نود ان نثبته ان هذه المادة الوفيرة هي من نتاج اناس معدودين زاغت بهم الفطر السليمة والتاثت عليهم سبل الحياة السديدة فركبوا هذا المركب الصعب؛ ولم يسعهم ان يزيحوا عن انفسهم عناء التخلي عن ذلك المسلك... فلقد اورثهم ذلك شيئاً من الشهرة التي تتطلبها النفوس المنحرفة وهي لاترضى بشيء من سواء الحياة بقناعة النفس الرضيـة.

ويبدو ان هؤلاء الشعراء الذين تولوا كبر هذه المعركة لم يكونوا يحسنون شيئاً غير هذا الصنيع الذي كانوا به يعتاشون احياناً، وبه يرضون مطالب نفس لاتشتهي غير نفث هذه الألوان الغريبة من القول؛ فتضمنها قصائد النقائض وهي حتماً غريبة على اسماع العربي الذي لم يورثه اجداده الشعراء من هذه الألوان شيئاً.

انني استدرك القول ان النقائض فنا للمقارعة بين خصمين لم يكن مجهولا عند العربي. كما استدرك القول في الموضع نفسه ان الهجاء الذي يشكل ركيزة النقائض لم يكن هو الآخر فناً غريباً على اسماع العربي؛ ولكن السمة الجديدة التي نحن بصدد دراستها من خلال شخصية جرير — كما يشير العنوان — هي هذا الايغال المسرف في الفحش بحيث يحس المرء ان كائناً غريب الوجه واليد واللسان — على حد تعبير المتنبي — قد ولج ميدان الشعر العربي على غفلة من حماته وحراسه.

لقد اصبح لزاماً على الباحث المعاصر – وهو يدرس موروثه الأدبي والفكري والانساني ان يبتعث الى الحياة مايدعم مسيرته الحضارية لبناء الانسان على اقوم الأسس من قيم هذه الامة ومثلها العليا التي تشكل معالم حياتها المتميزة ، وفي الوقت ذاته لابدله ايضاً ان يكشف عن مواطن الضعف والزلل والانحراف في جملة ذلك الموروث ليتبين الدارس والقارىء من عملية الكشف هذه اموراً ثلاثـة:

أولهـا: قطع دابر عناصر الهدم، والحيلولة دون تسربها الى الحرم الأدبي والفكري في حياتنا الراهنة ، ومنع تكرار ماعتور مسيرة الأدب من زيغ وانحراف، لتبقى صفحات ادبنا العربي ناصعة نصاعة ولادتها على الارض العربية، ونصاعة المبادىء والقيم التي حمل امانة ابلاغها الى الاجيال التاليـــة:

وثانيهـــا: التنبه الى شذوذ هذه الظاهرة في أدبنا العربي، كما تنبت في أي مضمار آخر مظاهر أخرى تدل على الشذوذ الذي لايشكل قاعدة اويطغى على مساحة كبيرة.

وثالث هذه الامور : محاولة تحديد مفهوم الالتزام بالموازنة بين المبادىء والقيم والمثل كنظريات وبين التطبيق العملي لكل ماارتضاه الانسان لنفسه في واقع الحياة بحيث يكون هذا التطبيق صورة صادقة لتلك النظـريـــات.

ان ملامح الافحاش ضئيلة المقدار في مادة النقائض بالنسبة الى عموم القصيدة، وقليل كذلك عدد أولئك الشعراء الذين ارتضوا لأنفسهم ان يكونوا أهل هذه الضلالة.. فما عرف الناس من رجال هذه المعركة غير جرير والفرزدق والأخطل...

أن هناك بواعث تكمن في تضاعيف حياة هؤلاء دون غيرهم من الكثرة الكاثرة التي شاءت لفن النقائض أن يأخذ مساره الطبيعي كما اخذ أي فن آخر مساره في حياة ادبنا العربي قبل الاسلام وبعده.

ومن خلال ماتوارد من اخبار هؤلاء الثلاثة فان ملامح سلوكية معينة تحدد شخصية كل منهم متميزة عن الآخرين ،حتى جعلوا الفرزدق فاحش الخلق بذيء اللسان لايرعى لأحد حرمة في قول او مسلك، الى جفاف في المشاعر وقسوة في الطبع، ثم عرجوا على جرير ليجعلوه مثال الورع والتقوى والعفة وطهارة النفس. وقد جرت الدراسات العديدة تبدىء وتعيد في أن الفرزدق هذه سماته وان لجرير من السمات مايميزه عن صاحبه، وقد وقفت عند هذا الأمر مليا، اقلب الاخبار على وجوهها، واتصفح من مباحث الدارسين قديماً وحديثاً مايوحي إلي بشيء من القناعة بصواب ماذهبوا اليه مقارناً ذلك بما حفلت

به الدواوين والمصادر من اشعار هي الأخرى صور لهؤلاء الشعراء قد تكون اصدق في الحديث من اخبار الرواة وقصصهـــم.

ولقد استأثرت سيرة جرير بشيء من اهتمامي حيث كنت اجدني على غير قناعة مما يقال من أمر ورعه وتقواه .

ذلك أن لنا مقاييس في القيم والاخلاق هي التي توزن بها اعمال الرجال فيما يأتون من قول او فعل، فاذا ماتحققت الموازنة صدقت كل مقولة، واي اختلال في الموازنة بين النظرية والتطبيق او القول والسلوك انما يدعونا الى مبحث جديد يعاد فيه النظر لتقويم الشخصية الأدبية او التاريخية التي نحن بصدد دراستها.

وجرير محور دراستنا هو ثالث الثلاثة الذين كانت حياتهم مرتبطة بالنقائض ومعركتها ارتباطاً مصيرياً، وكانت معركة النقائض هي المضمار الذي تتكشف من خلاله النفسيات وماتضمر بين طياتها وخباياها.

وهدف البحث الرئيسي هو تحديد مقدار الموازنة او خللها في حياة جرير بين سلوكه من خلال ماعكسه فن النقائض وجملة من اخباره وبين دعوى الورع والتقوى والعفة.

موازين اسلامية :

يهدف الاسلام الى بناء الانسان بناءاً متميز الملامح ويمنحه من السمات ما يخلق في مجمل حياته تساوقاً بين النظرية والتطبيق ،وان اي اختلال او اضطراب في السلوك يعرضه صاحبه الى حساب دنيوي وأخروي ، لانه اختلال يصيب تلك الموازنة التي يريـــد الاسلام تحقيقها في واقع حياة المسلم.

والقرآن الكريم يقدم لنا هذه الحقيقة صريحة واضحة في قوله تعالى : « ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر» (١).

ولذلك ينبغي ان يكون للأيمان ومتطلباته من عبادات مختلفة اصداء عملية في مجمل حركة المسلم على صعيده الذاتي او الأسري او الاجتماعي، في سلوكه ومعاملاته وعلاقاته وسائر ممارساته في الحيـــاة .

كما يشير القرآن الى فضاعة الأثم الذي يتورط فيه المسلم ببعض الممارسات غيـــر الاخلاقية ، ومن ذلك رمي المحصنات البريئات بالتهم الشنيعة التي من شأنها ان تهدم الكيان الاجتماعي وتعرض المجتمع الى اضطراب وهزات عنيفة.

---

(١) سورة العنكبوت ٤٥ .

قال تعالى :

«ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيـــم » (١).

وبين ايدينا جملة وافرة من أحاديث رسول الله ـ ص ـ تشير الى وجوب تحقق المعاني الايمانية في سلوك عملي يرتبط بحياة الانسان فرداً ومجموعاً، وحرص على ان يكون الالتزام واعياً من أجل ضبط هذه الموازنة بين النظرية والتطبيق.

فقد حرم الاسلام الهجاء المقذع ، وفي ذلك يقول الرسول «ص» «من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر» (٢) .

ويشير في حديث آخر الى دور اللسان كأداة تعبير في حياة الانسان وتحديد موقعـــه الاجتماعي : ومدى خطورة مايتفوه به ، وما يقتضي من ضرورة ضبطه ضبطاً لايفضي بصاحبه الى الهلاك .

«عن عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك » (٣) وفي الموازنة بين سلوك حسن وآخر تقيضه يقول الرسول (ص) : ما شيء اثقل من في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وان الله ليبغـــض الفاحش البذيء » (٤)

وفي تلمس آثار الورع والتقوى في حياة المسلم وفي حياة الآخرين الذين يعايشهم ذلك المسلم يوضح لنا الرسول (ص) خطوط هذه المعايشة وملامحها وما ينبغي لها ان تكون . قال (ص) : « المسلم اخو المسلم لايظلمه ولايخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا» ويشير الى صدره ثلاث مرات . بحسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» (٥)

كما نهى الرسول (ص) عن السباب ، وحمل البادىء به مسؤولية البدء بإثارة فتنة غير محمودة عواقبها ، ثم حمل المظلوم مسؤولية مماثلة اذا لجأ الى الاعتداء والثأر لنفسه ،

---

(١) سورة النور ٢٣ .
(٢) العمدة ١٧١ .
(٣) الجامع الصحيح – الترمذي ٦٠٥
(٤) المصدر نفسه ٣٦٢ .
(٥) صحيح مسلم ٤ / ٩٨٦ .

حيث روى ابو هريرة ان رسول الله (ص) قال : «المستبان ما قالا فعلى البادىء ، ما لم يعن المظلوم» (١)

من خلال هذه التوجيهات السديدة التي رسم الاسلام خطوطها العريضة واضحة جلية يتبين لنا مدى الحدود التي ينبغي للمسلم ان يتحرك ضمن اطارها ... هذه الحدود التي وجدت لصيانة الانسان من العبث والتجاوز والاعتداء على محرمات الناس ، ولبنائه في اقوم هيئة وأمثل صورة ، مما يعكس المثل الاسلامية النظرية في صيغة تطبيقية عملية ؛ وان الخروج على هذه الحدود يعرض المرء للحساب ، في الوقت الذي يشير الضوء الاحمر الى انحرافه عن المسلك الاقوم وتجاوزه الحد المسموح له .

وحين يتم هذا التجاوز باختيار الانسان و محض ارادته ، بل يزداد مع الأيام ضراوة وشدة تتهاوى السمات الايمانية واحدة اثر اخرى ، وتنأى عن المتجاوز كل خصائص الورع والتقوى . وفي ضوء هذه الاحكام يكون تعاملنا مع جرير الشاعر الموصوف بالورع والتقوى والذي جاءت جملة اخباره وأشعاره تشير الى تجاوز يتنافى مع ما اوردناه آنفاً من موازين وقيم وتوجيهات .

النقائض ، والرأي الراجح في دوافعها :

لم يكن فن النقائض وليد العصر الأموي وأنما يضرب بجذوره الى عصر ما قبل الاسلام خاضعاً في تناميه وذيوعه الى ظهور الفحول من شعراء الجاهلية في خضم العصبيات القبلية وفي ظل الأيام والحروب ، وكان ظهوره في ذلك العصر امراً طبيعياً ، فهو نتاج للطبيعة الخاصة التي اتسمت بها حياة العرب آنئذ .

ولذلك لم يكن ذلك الفن من الظواهر التي تلفت الانظار باكثر مما تأخذ الظاهرة الشعرية عامة من اهتمام الناس ، فهي جزء من حركة الشعر التي هي موضع العناية والاكبار .

واستأنف هذا الفن مسيرته في عصر صدر الاسلام مؤدياً دوره في هذا الصراع الذي نشب عنيفاً بالغ العنف بين المسلمين والمشركين مسترشداً في ذلك هدي الاسلام ومثله .

والهجاء في فن النقائض هو عصبه النابض ومادة وجوده وكيانه ، ولكن الهجاء لم يخرج عن وظيفته الاساس المقبولة عرفاً وذوقاً في كونه اداة لتشخيص المثالب المرفوضة وممارسات الحياة المستهجنة التي تجلب المعرة لمن يوصم بها «فلم تنحط النقائض الجاهلية الى درجة الاسفاف الخلقي كما حدث ايام الأمويين ، ولم تهدر حدة العصبيات جميع

(١) المصدرنفسه ٤ / ٢٠٠٠ .

مابين القبائل من حرمات ، وانما لاحظنا فيها بقيا عل القرابة ورعاية للحرمات ، ووقوفاً في الهجاء عند صفات الجبن والبخل والفرار بحيث لاتخجل المرأة من رواية النقائض الجاهلية والمشاركة فيها ، اذا كانت اطهر معاني وأبعد عن ذكر العورات والكلمات النابية المكشوفة» (١)

وقال خلف الاحمر : «اشد الهجاء أعفة واصدقه» (٢)

وقال الجرجاني صاحب الوساطة : «فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض ؛ وما قربت معانيه وسهل حفظه واسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والافحاش فسباب محض وليس المشاعر فيه إلا إقامة الوزن (٣)

وبذلك يمكن ان نعد فن النقائض في العصر الأموي ظاهرة أنحراف ، وطريقة ملتوية لتوظيف فن الهجاء توظيفاً أبعده عن اداء دوره الطبيعي مع بقية فنون الشعر وأوغل بـه في التجريح بغير حق . فقد نال من الاعراض وثلم من الحرمات ، وافاض في الايذاء على صورة لم يكن للشعر الهجائي عهد بها من قبل .

ولقد قال الباحثون في دوافع النقائض اقوالاً متعددة كثيرة ، وقد توزعت هذه الدوافع عند الدكتور محمود غناوي الزهيري بين سياسية واجتماعية وأدبية (٤)

والدكتور مصطفى الشكعة جعلها بين سياسية وقبلية وذاتية اي شخصية (٥)

اما الدكتور شوقي ضيف فيرى ان العوامل تارة اجتماعية واخرى عقلية (٦)

ويضيف اليهما عامل الرغبة في تسلية الجماعة العاطلة في البصرة والكوفة (٧) ويذهب الدكتور محمد مصطفى هدارة الى أن النقائض «عبارة عن هجاء دائم مستمر ، وعبارة

---

(١) تاريخ النقائض في العصر الاموي ١٢٥ .
(٢) العمدة ١٧١ .
(٣) الوساطة ٢٤ .
(٤) نقائض جرير والفرزدق – دراسة ادبية تاريخية – الفصل الخامس والفصل السادس والفصل السابع .
(٥) رحلة الشعر من الاموية الى العباسية ٢٣ .
(٦) العصر الاسلامي ٢٤١ .
(٧) العصر الاسلامي ٢٥٠ .

عن احتراف لفن الهجاء : لم يكن يراد بها الجد ، كما كان شأن الهجاء في الجاهلية ، ولكن يراد بها الضحك والالهاء» (١)

وحين يتحدث طـه حسين عـن ظـاهرة الهجاء عند جـرير يوضح الدافع الذاتي فيقول « .... غرضه الاساس اذا هجا ان يضحك من صاحبيه سواء اقال الحق ام لم يقله وسواء كان جيد اللفظ والمعنى ام لم يكن» (٢)

اما الدكتور عبدالمجيد المحتسب فيرى ان النقائض «من ثمرات اصطراع العصبيات القلبية (٣) وان بقية الدوافع لم تكن الا مضاعفات (٤)

ثم يعود ليوسع دائرة الدوافع بين جرير والاخطل بشكل خاص فيجعلها بين اقتصادية وشخصية وفنية وسياسية وعصبية واجتماعية . (٥)

اننا ازاء هذه الآراء التي عرضت لدوافع النقائض ينبغي ان نأخذ بنظر الاعتبار ملحظين مهمين :

اولهما : ان هذه الامور التي جعلها الباحثون دوافع او عوامل انما هي وقائع واحداث وسمات تتأرجح بين الحقيقة والافتعال جعلها شعراء النقائض مادة تمدهم بطول النفس في بناء القصيدة ، وجعل ذلك من حوافز القول التي تحقق الغلبة والفوز ليس الا .

وثاني الأمرين : أن الدافع الأساس الذي ارجحه والذي اعده المحور الذي يدور عليه رحى هذه المعركة المفتعلة هو ذاتي شخصي نابع من الاستعداد النفسي الذي يجعل الشاعر مندفعاً من غير ان يردعه رادع او يقفه وازع .

ان الاستمرار في هذه المعركة يدل على استعداد ذاتي وتهيؤ نفسي وخصال لا يملكهـا كثير من الناس بل الشعراء .

من هنا انفذ إلى اعماق جرير الذي هو ثالث الثلاثة الذين بقوا في هذه الحومة بعد ان انسحب الآخرون .

واغلب الظن ان انسحابهم كانت له دلالة اخلاقية حيث لم يشاؤوا ان يستأنفوا المقارعة تعففاً وتأثماً ، فليس بمقدور الآخرين ان يكونوا على شاكلة هذا الثالوث غير المتـورع عن الفرية ورمي المحصنات .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ٤١٩ .
(٢) من تاريخ الادب العربي ٦٥٨ .
(٣ – ٤) نقائض جرير والاخطل ٦٦ .
(٥) المصدر نفسه ٦٧ .

ان هذا الدافع الشخصي البحت هو المصدر الوحيد الذي كان يغذي هذه المطاولة أو هذه المباراة المشروعة في اطار ذلك المجتمع الذي لم يكن كل افراده يستهويهم ذلك ، مع اننا لا نستبعد ما ذهب اليه الرواة من ان الناس كانوا يتحلقون حول ابطال النقائض يستمعون اليهم ويصفقون للمبدع منهم حين ينتصر على خصمه في نقض فكرة او ايراد معنى مبتكر ، حتى اصبحت هذه الظاهرة تحترف احترافاً (١) .

وكان الابتكار يعتمد خلق صورة كاريكاتورية لمعنى فاحش موغل في الفحش مؤذ غاية الايذاء .

وللتدليل على فردية الدوافع او ذاتيتها ان شاعراً من سليط اليربوعية يسمى غساناً هجا جريراً فسقط عليه بهجاء مرير فاستغاث منه بالبعيث المجاشعي فانصب عليه جرير هو الآخرير بشواظ من هجائه . وقد افحش بنساء مجاشع افحاشاً شديداً جعلهن يستغثن من بالفرزدق (٢) .

واذا ما استعرضنا مواقف جرير والفرزدق في خضم التيارات السياسية لوجدنا عدم ثبات تجاه أحد منهم بحيث يدافع عنه بحماس او يخلص لمبدأ التزم به وأصبح علامة بارزة في حياته .

«فقد كانا زبيريين ما استقام الأمر لآل الزبير ، ... وان عبدالملك لم يأذن لجرير بالدخول عليه الا بعد ان سمع شهادة الحجاج بأنه لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه (٣) .

« .... وحينما تتحد قيس وتميم تحت راية المضرية ضد الربعية واليمانية يقفان موقفاً واحداً من ولاة الدولة» (٤) .

«.... وان جريراً باعتباره خصماً للأخطل اضطر إلى الوقوف بجانب قيس عدوة تغلب ليتخذ من مآثرها وأيامها التي كانت لها على تغلب مادة يهجو بها الاخطل وقومه» (٥) .

---

(١) ينظر – التطور والتجديد في الشعر الاموي ١٦٤ .
(٢) طبقات فحول الشعراء ٣٨٦ – وللوقوف على التفاصيل يراجع « نقائض جرير والفرزدق » لأبي عبيدة ٣٧ – ٣٨ وينظر العصر الاسلامي ٢٤٣ .
(٣) نقائض جرير والفرزدق – غناوي ٢١١ .
(٤) المصدر نفسه ٢١٣ .
(٥) المصدر نفسه ٢٢١ .

جرير وآراء في سيرته :

ليس من شأن هذا البحث ان يفيض في تفاصيل سيرة جرير ، وانما سيلم بعلك الجوانب الحساسة الدقيقة بالقدر الذي يتصل بنفسيته التي نحن بصدد دراستها .

قال أبو عبيدة : «يحتج من قدم جريراً بأنه كان اكثرهم فنون شعر وأسهلهم الفاظاً وأقلهم تكلفاً وأرقهم نسيباً وكان ديناً عفيفاً» (١) .

وسئل عبيدة بن هلال ... فأي الرجلين عندك أشعر ؟ أجرير أم الفرزدق ؟

فقال : لعنكما الله ولعن جريراً والفرزدق ، أمثلي يسأل عن هذين الكلبين» (٢) .

وقال فيه الفرزدق : «قاتله الله فما اخشن ناحيته وأشرد قافيته ، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها ، والشابة على احبابها ، ولكنهم هروه فوجد عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارصاً» (٣)

قال صاحب الاغاني : «كان جرير من اعق الناس بأبيه وكان بلال ابنه اعق الناس به . فراجع جرير بلالا الكلام فأقبلت أمه عليه وقالت له : ياعدو الله اتقول هذا لأبيك ؟ فقال جرير : دعيه فوالله لكأنه سمعها مني وأنا اقولها لأبي» (٤)

قال هشام بن عبدالملك لشيبة بن عقال : وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير ، الاتخبرني عن هؤلاء الذين فرقوا اعراضهم وهتكوا استارهم وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولابر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟» (٥)

ثم طلب من خالد بن صفوان ان يصفهم فوصفهم وصفاً شاملاً ، حتى اذا بلغ جريرا فمن جملة ماقال عنه انه «اهتكهم لعدوه ستراً» (٦)

---

(١) الاغاني ٨ / ٥ .
(٢) الاغاني ٨ / ٧ .
(٣) الاغاني ٨ / ١ .
(٤) الاغاني ٨ / ٧٤ .
(٥) الاغاني ٨ / ١ .
(٦) الاغاني ٨ / ٨٢ .

حضر جرير مجلس الوليد فأنشده شعراً في ابن الرقاع ، «فقال له الوليد لاكثّر الله في الناس امثالك ، فقال له جرير : ياأمير المؤمنين انما انا واحد قد سعرت الأمة فلو كثر أمثالي لافنوا الناس» (١)

قال ابن قتيبة : «وكان مع حسن تشبيبه عفيفاً» (٢)

«وحكى ابو عبيدة قال : « كان جرير مع حسن تشبيهه عفيفاً وكان الفرزدق فاسقاً» (٣)

وقال ابن رشيق : «وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء اجود ؛ وتترك الفحش فيه أصوب الا جريرا . فانه قال لبنيه اذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ، واذا هجوتم فخالفوا» (٤)

هذه طائفة من اقوال القدامى عن جرير تكشف لنا عن نفس قد انطوت على جملة من خصال غير محببة الى النفس تتنافى مع الموازين التي حددها الاسلام والزم اتباعه أن يصوغوا وجودهم خلقاً ومسلكاً وفق منها جها ومقتضاها .

ولعل المحدثين قد جروا في مضمار القدامى حين تحدثوا عن جرير ، فمنهم من أعاد ماقالوا من غير تحديد ميزان يزنون به الرجال في اقوالهم وسلوكهم ؛ فافتقاد الميزان من ثغرات المباحث التي اعتادت ان تلقي الكلام على عواهنه من غير تمعن او تدبر لما يقع فيه الباحث من خلط واضطراب وتناقضات .

قد يكون في الباحثين من يركز على مظاهر الانحراف وينبه عليه ويجسد ملامحه بوضوح . يقول بلاشير :

«وكانت براعته قائمة على تطويع آرائه حسب مصلحة انتهازية حذرة» (٥) .

ويقول ذلك : «فقد اجتمعت في جرير عجرفة وكبرياء حد الوقاحة ، وهوان أمام الكبراء ، وضعف همة قد يثير غيابه العجب» (٦) .

---

(١) الاغاني ٨ / ١٠ .
(٢) الشعر والشعراء ٤٣٧ .
(٣) وفيات الاعيان ٣٢٢١ .
(٤) العمدة ٢ / ١٧٢ .
(٥) تاريخ الادب العربي ٣ / ٤٢ .
(٦) المصدر نفسه ٣ / ٤٧ .

ويبدو في حديث الدكتور شوقي ضيف كثير من التناقض في دراسته لسيرة جرير ، فهو تارة يقول :

«وأما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيء من المآثر الحميدة ، فانطوت نفسه على حزن قد صفى جوهرها وزادها في هذا الصفاء تأثره بالاسلام اذا كان ديّناً عفيفاً طاهر النفس» (١) .

ويورد عنه الرائية لزوجه ، ويريد بذلك ان يقيم برهاناً على مسلكه الورع فيقول «... وهو يدعو لها دعاء المسلم المؤمن قلبه» (٢) .

ثم يعود ليجعل لجرير مميزات التفوق فيقول :

«وهو لذلك سبق الأخطل والفرزدق في الرثاء والغزل وعواطف الزوجية والابوة . وهو كذلك يسبقهما في الهجاء الخالص ، اذا كان يعرف كيف يريش سهامه ويسددها إلى نحور خصمه محملا لها ما يمكن من سموم» (٣) .

ولعل القارىء يحس بالفرق الكبير بين ما اورده شوقي ضيف في اول حديثه من سمات تحبب الرجل إلى الناس وما اورده في غير ذلك الموضع من سمات تبغضه إلى الناس : فالنفس المفعمة بالدين والعفة والطهر لا يمكن ان تختزن سموم الأحقاد او تريش السهام لتصيب الناس في حق أو غير حق .

والدكتور نعمان محمد أمين يرسم صورة أخرى لجرير يتبين من خلالها رجلا لم تلامس قلبه أية مسحة من ايمان او ورع ، ذلك أنه «ركز هجاءه الساخر لاعدائه كالفرزدق ، والأخطل وتميم في المرأة يكاد يشرحها تشريحاً ويجعلها عارية كيوم ولدتها امها نهباً للأنظار ، ويكاد يصف العملية الجنسية وصفاً بعيداً عن الخجل والحياء ؛ ... وحينئذ يعجب القاريء ويستولي عليه الدهش من ذلك » (٤) .

ويرجع الدكتور نعمان محمد أمين اسباب الدهش الى ان جريراً عميق التدين ، ولكنه جمع الى ذلك اصلا وضيعاً وورث عن خاله الحمق ، مما جعل عقدة النقص تتحكم فيه فيهتاج كالمجنون ليشفي من الناس غليله . (٥)

---

(١) العصر الاسلامي ٢٨٦ .
(٢) المصدر نفسه ٢٨٦ .
(٣) المصدر نفسه ٢٨٨ .
(٤) جرير – حياته وشعره ٣٨٣ .
(٥) المصدر نفسه ٣٨٣ .

وكان الدكتور مصطفى الشكعة ممن وقع في ما اشرنا اليه من تناقض ، وذلك في حديثه عن جرير حيث قال : « ان لجرير مثلا علياً يستمسك بها ، وهـو يعلم ان المجتمع الذي يعيش فيه يحمد له صفاته ، ويمجد استقامته ، ومن ثم فانه يركز على انحراف الفرزدق في ابيات قوية تلفت الناس اليه فيحكمون له ضده » . (١)

الاانه في موضع آخر يعلق على أبيات لجرير في الفرزدق بقوله : « .... الى آخر تلك الأبيات الموغلة في الافحاش، المليئة بكل قبيح من اللفظ مستنكر من العورات»(٢)

من هذه المجموعة من الاقوال تتبين لنا بوضوح الخطوط الرئيسة لهذه الشخصية ، الفريدة من نوعها ، ذلك انه رجل محظوظ ، حين يوغل هذا الايغال العميق في الايذاء ثم يكون موضع تقدير الباحثين واكيارهم مميزاً عن لداته وشركائه بالورع والتدين والعفة .

ومن خلال ماسبق اتضحت امامنا خطوط الانحراف النفسي والزيغ عن جادة التدين اكثر عمقاً وابرز دلالة .

جرير ومعركة النقائض :

مهما يكن من أمرماقيل فيانشأة النقائض في العصر الاموي ، فان الرأي الذي رجحناه في دوافع ذيوعها وتحولها الى ظاهرة تسلية ووسيلة اضحاك وامتاع هو أن الدافع الذاتي او الشخصي كان الباعث على تنامي هذا الفن وذيوعة وانتشاره وولع الناس به واقبالهم على شهوده وكأنهم يقبلون على مباراة تنتهي بغلبة فريق على آخر بوسيلة من الوسائل :

ان جريراً دخل ميدان المطاولة واثبت من القدرة ماجعله متميزاً عن صاحبيه .

والبدايات تشير الى تفاهة الدوافع ، بحيث ان موقفاً لايتصل بسبب الى قبيلة ، اوان يخدش سمعة يستطير فيه الهجاء ويكون شراره لنار مضطرمة سنين طوالا لم يثأر خلالها لكرامة ولادوفع فيها عن عرض ولادل على وجود خصومة ، بدليل ان ماقيل من اشعار لم يكن سبباً في معركة حقيقية تسفح فيها الدماء وتزهق في اتونها الارواح ، وكأن جمهرة كبيرة من الناس لم تكن لتعير هذه اللعبة المقيتة اهتماماً ، بـل كان ذلك مسرحاً لامتاع نفر من الناس كانوا يلهون ويسمرون .

---

(١) رحلة الشعر من الأموية الى العباسية ٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ٥٣ .

واذا كان السبب المباشر لمبدأ مناقضات جرير مع الفرزدق يبرر بعض التبرير اندلاع المعركة بينهما ، فأن ماورد بشأن مهاجاته للأخطل لايمكن ان يعد مبرراً مقنعاً البتة .

يروي ابن سلام في طبقاته « ان الفرزدق والاخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يغري بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق والاخطل ؛ فقال : اعفني ايها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفى بجهده ، فأبى الاان يقول ، فقال : هذا حكم مشؤوم : الفرزدق ينحت من صخر . وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما » (١)

ان هناك روايات اخرى الى جانب هذه الرواية تقفنا على بواعث استثارة الهجاء بين جرير والاخطل . كلها غير مقنعة لأن تكون سبباً مباشر لعداء او خصومة .

الأأن شوقي ضيف اراد ان يجعل وراء هذه الظاهرة خصومة قبلية بقوله :

«.... اذ كان الاخطل لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس في المربد جريراً لسانها فكان من الضروري ان يصطدم اللسانان المعبران عن الطرفين » (٢)

وحتى ان الاخطل نفسه لم يكن مقتنعاً بجدوى هذه المعركة التي تورط فيها ، ويظهر ذلك من قوله : حين سئل عن جرير بالكوفة « دعوا جريراً اخزاه الله فأنه كان بلاءً على من صب عليه ».. (٣)

ازاء هذه التعليلات والبحث عن الاسباب الكامنة وراء هذه المعارك نريد ان نقول ان جريراً وجد في الاخطل وقد قدم ليقف على حقيقة المعركة المستثارة بين الفرزدق وجرير — خصماً جديداً تمنى ان يقحم في هذه المعركة بأي صورة . وهذا الخصم شاعر له مكانته المعروفة وقدمه الراسخة في ميدان الشعر . اذن هي الفرصة المثلى لاثبات التفوق . في الوقت الذي لايفكر فيه جرير تفكيراً جدياً في ان الاخطل من تغلب وان جريراً من قيس ، ليكون الخلاف او الخصومة بين القبيلتين من دواعي التهاجي . وليس من شأن جريراً ان يندفع باخلاص لنصرة قومه من حيث ان ذلك واجب يؤديه او موقف لابد له ان يقفه .....

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٧٤ .
(٢) التطور والتجديد في الشعر الاموي ١٦٩ .
(٣) طبقات فحول الشعراء ٣٧٥ .

« ولج الهجاء نحواً من اربعين سنة لم يغلب واحد منهما على صاحبه ، ولم يتهاج شاعران في الجاهلية ولا الاسلام بمثل ماتهاجيا به » (١) .

ان جريراً يتحرك خارج دائرة الالتزام السياسي او القبلي . وقد سبقت الاشارة الى مواقفه المضطربة في الانتماء السياسي والقبلي ، وكل مايدور في ذهنه ان ينهض ازاء خصمه التقليدي ضمن دائرة الفن الشعري شاعراً لايشق له غبار . يقول في ذلك الخصم ماشاء له ان يقول كائنة ماكانت الافكار والمعاني التي يطرقها ؛ ومن جملة ذلك هذا الامعان في الافحاش والاقذاع في النيل من خصمه ومن عشيرته ونسائها بصورة خاصة على صورة افقدت تلك الموازنة المراد تحققها في المسلم الذي ينعت بالورع والتقوى والتدين .

حين يرتضي جرير لنفسه ان يحترف السباب الموجع الى حد قذف المحصنات فان تلك الموازنة التي المحنا اليها – والتي هي محور دراستنا لنفسية جرير – يصيبها الاختلال والاضطراب الى درجة تسلب جريراً كثيراً من سماته الدينية ، كما تحبط في ممارساته التعبدية مايتوخى من أجر ومثوبة وفق ماأشرنا من موازين دينية تتحكم في تحديد اهداف الالتزام الديني .

لقد خاض جرير الى جوار صاحبيه المعركة فثبت فيها علماً من اعلامها بل – فيما ارى – ابرز اعلامها ، ولاسيما في انتوغل في مضمار النيل من الاعراض .

فقد اجتمع له من عوامل الوراثة والبيئة الخاصة ماحمله على المسلك الوعر حتى تخطى به حدود الدين والورع ، فالسمات الهجائية التي عرف بها جرير انما هي من الانماط التي تجرح المشاعر فتستهجنها وتخدش الاسماع فتنفر منها ، وكثيراً ماكان يعير الاخطل ونساء تغلب بالزنا والفجور ومن ذلك قوله (٢) .

ام الاخيطل بالرحوب اذا انتشت ... علقت بشقشقة العجان هديرا
لقحت لاشهب بالكناسة داجناً ... خنزيرة فتوالدا خنزيرا
ولد الاخيطل امه مخمورة ... قبحاً لذلك شارباً مخمورا
وكأنما بصق الجراد بليتها ... فالجلد لانديا ولا منضورا

ان هذه الابيات ربما كانت اقل شعر جرير فحشا وبذاءة فهناك من قصائده مايصرح فيه بالالفاظ التي لاتورد على لسان فاحش فضلاً عن متعفف .

---

(١) المصدر نفسه ٣٨٩ .
(٢) نقائض جرير والفرزدق – ابو تمام ١٢٦ .

ومن الجرائر التي حرمها الاسلام وعدها من الكبائر رمي المحصنات ، وان خالف الشاعر في دينه ، فالمسلم مصون اللسان حتى عن اعدائه ، واقل مايمكن ان توصف معانيه انها مفتراة مكذوبة . وبذلك يجمع سوءة اخرى الى سوءاته —

وكان الشاعر في غنى عن ولوج هذا المسلك الضيق . ففي وسعه ان يتناول مهجوه بأية صورة فنية مضحكة ، قد تحمل على محامل الدعابة والصنعة الفنية مما يقلل ازاءه الاثم وتصغر المعصية ، وعندئذ يحق لنا ان نصف وقوفه عند ذلك الحد ضرباً من التورع والخشية من مغبة الافحاش والايذاء .

حين يجد الشاعر نفسه في سعة من القول فانه يتجاوز المحارم والآداب المرعية في مجتمعه وهو بذلك يعين نفسه على انه انموذج للتحلل والعبث ولاسيما في وسط يحرص على سمعة النساء ويجد غضاضة في ان يمسسن بسوء : فكيف الامر وكل مايقوله جرير حصيلة نفس بينها وبين الورع مسافة شاسعة .

والايغال في هذا الضرب من الهجاء يشخص معالم الجادة السلوكية التي ارتضى صاحبها لنفسه ان يسيرها مع شيء من المعاناة النفسية الجادة التي تتصارع بين الاثم والتورع ، فيغلب الاثم انتصاراً لنزعة اصطلحت الظروف عليها لتحيد بها عن السبيل الاقوم وتؤثر للمركب الصعب ، والانكى من ذلك ان هذه النزعة لاتحقق له مأرباً من مآرب الحياة سوى ان يكون صاحبها اضحوكة النظارة وسوى ان يشبع من نهم نفس تملؤها احقاد من الوان شتى .

ان جريراً يمرّ بأزمة تورط غلب عليه ازاءها ضعف نفسي يتمثل في الاختلال الواضح في تلك الموازنة التي المحنا اليها غير مرة ... انها حالة من حالات الادمان ، : والادمان ضعف لايمكن تلافيه الابتوطين النفس على التحدي والمقاومة والمصابرة حتى يقود هذه النفس الى حالة التوازن وعندئذ تتلاشى كل المظاهر الانحرافية في السلوك والممارسة. وحالة الاختلال يحس بها جرير احساساً واضحاً يبدومن خلال لجوئه الى الانابة والاستغفار بعد ان يلقي قصيدته ، وقد كان يكثر من الاستغفار فيما قال في جعثن اخت الفرزدق يدفعه الى ذلك شعور كبير بالاثم يجثم على نفسه ، فحاول ان يخفف عن اعبائه ؛ ثم يجد متنفسه في الانابة والاستغفار . يقول ابو عبيدة في كتابه النقائض « ويقال ان جعثن كانت امرأة عفيفة مسلمة صالحة » (١) وكان جرير يقول كثيراً ما استغفر الله مما

(١) نقائض جرير والفرزدق — ابو عبيدة ٢٢٢ .

قلت لجعثن » (١) « وجاء الاعور النبهاني جريراً صباحاً امام بيته وقد صلى الصبح وكان لايتكلم اذا صلى الصبح حتى تطلع الشمس ولو تناحر الحي » (٢)
ولكن المؤاخذة عليه تظل قائمة ، لأن له بعد ذلك عودة الى مقارنة الاثم في حلقة مفرغة متواصلة .

ان في اعماق الرجل كبرياء من العسيرأن تتطامن امام القيم انداعية الى التورع وان الاحساس بالنقص كان ينفخ في هذه الكبرياء طلباً لتوازن نفسي من نوع آخر غير الذي اشرنا اليه سابقاً .

واحسب ان لو كان الامر مقتصراً على الهجاء الفردي الذي تدعو اليه ظروف موضوعية طارئة لكانت الصورة تختلف ... ولكنه فن النقائض الذي استحال الى مسرحية يومية متصلة الحلقات متوافرة الدواعي يراد من الشاعر الممثل ان يوفر لها كل اسباب النجاح ومتطلبات التفوق فيكون الاسراف في جوانب الفحش والاقذاع واحداً من هذه المتطلبات. وهنا يمكن التورط الذي لافكاك منه ، وهنا يبدو الضعف الذي ينجم عن الادمان .
ان العقدة النفسية التي استحكمت في جزير قد افرزت من الآثار مالم يستطع ان يخفي معالمها في سلوكه وفي معطياته الشعرية وذلك هو نوع من التوتر الانفعالي الموصول ، الذي يرى بعض علماء النفس انه نتيجة لعدم قدرة الفرد على حل مشكلاته باساليب ايجابية واقعية .

حيث يلجأ «الى اساليب ملتوية خادعة تخفف عنه بعض مايكابده من تأزم نفسي ، وتنيه مشاعر القلق والعجز والفشل والخجل والرثاء للذات وغيرها من المشاعر التي تنشأ عن احباط دوافعه » (٣) .

ان الاحساس بالاحباطات السابقة يدفع جريراً الى العدوان ، فالعدوان — كما يرى دولارد — «لايصدر عن غريزة بل يكون في العادة نتيجة ... فالانسان يغضب ويعتدي في المواقف التي تهدد أمنه وماله او تلك التي تشعره بالتحكم والحرمان وقد يكون العدوان وسيلة للتمويه على شعور بالنقص او لتوكيد الذات واعلان الشخص المهمل عن وجوده اولانه يتوقع ان خصمه سيباغته على حين فجاءة » (٤)

---

(١) المصدر نفسه ٣٩٨ .
(٢) المصدر نفسه ٣١ .
(٣) اصول علم النفس ٤٥٣ .
(٤) المصدر نفسه ٤٦٦ .

وهذا التمويه المشار اليه يبرز واضحاً في تلك القصة التي يبدو فيها جرير متهكماً بنفسه وبأبيه .

«قال الاصمعي حدثني بلال بن جرير او حدثت عنه ان رجلاً قال لجرير : من اشعر الناس ؟ قال له : قم حتى اعرفك الجواب فأخذه وجاء به الى ابيه عطية. وقد اخذ عنزا له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها فصاح به اخرج ياأبت . فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ، فقال ! الاترى هذا ؟ قال : نعم . قال أتعرفه ؟ قال : لا . قال : هذا ابي . افتدري لم كان يشرب من ضرع : قلت لا . قال مخافة ان يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : اشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم به فغلبهم جميعاً » (١)

شعر النقائض ونفسية جرير

لعلنا فيما سلف من الحديث لم نفزع الى الشواهد الشعرية الا لماما . وفي هذا الفصل نحاول ان نجعل من الشعر الشاهد الدامغ لسلوك جرير وتوضيح أبعاد نفسيته .

ونركز وفق مارسمناه لهذا البحث من خطوط على الجانب المقذع الذي نعده المادة المفتراة على المهجو دون ان نقف طويلا عند عناصر الهجاء المعروفة المتداولة عند الشعراء بعامة

ان جريراً لايقف عند هذه المعاني فحسب بل يوغل الى ابعد من تلك الحدود مخرجاً الهجاء عن سماته المعروفة :

يقول جرير (٢)

ان السليطي خبيث مطعمه ... اخبث شيء حسباً والأمه

محرنفشاً بحسب لايعلمه ... است السليطي سواء وفمه

خنزير برّ سيء تنسمه ... هل لك في بيض خصي تلقمه

ان السليطي مباح حرمه

قد تفضي بعض صوره الكاريكاتورية الى الضحك. وقد تدعوا احياناً الى الاعجاب بقدرته الفنية على رسم مثل هذه الصور ، وان كان يلجأ الى استخدام بعض الألفاظ التي ينبو عنها الذوق ، ولكن هذا الاعجاب او الضحك سرعان مايتحول الى جهامة لدى القارىء

---

(١) الاغاني ٨ / ٤٨ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق — او عبيدة ٤ ، ٥ .

بل استهجان يحس به في اعماقه وهو يرى جريراً وقد انعطف في فنه انعطافة غير أخلاقية على حين غرة ، بصورة لايتوقعها القارىء ... كان بوسعه ان يقف عند قوله .... هل لك في بيض خصي تلقمه ولكنه لجأ غير مضطر ومن غير تبرير الى رمي المحصنات البريئات حين جعل حرم السليطي مباحاً في قوله :

ان السليطي مباح حرمه

ان انحراف جرير ليس انحرافاً في المضمون فحسب ، بل هو انحراف في الشكل حين لايحافظ على وحدة موضوعه ، فاذا كان السليطي مرمياً بخبث المطعم او باللؤم او انه ختير ، فهل يستوجب ذلك ان يكون بالضرورة مطعوناً في شرفه مستباحاً في عرضه ؟ « ومعين جرير لاينضب في هذا الباب ، فهو يرسل الصور القبيحة متتالية في ديوانه يرمي بها خصومه ، فلا يرحم النساء ولايشفق على شرفهن ولايبالي حين يدمي العرض ويخدش بالكرامة والعفة » (١)

ان الواقف على نقائض جرير يحس ان ايغاله في الايذاء حين يتناول العرض والشرف بالقدح والتجريح يأتي ضمن بيت او ابيات لايشدها رابط الى ماقبلها اومابعدها وكأنها مقحمة قسراً في هذا الموضع .

ومما يجمع بين سخف دوافع الهجاء وبين نبو الذوق وانعدامه في ذكر مادة الهجاء ما ورد في نقائض جرير والفرزدق) (٢) ان بعيثاً قال : وجدنا الشرف والشعر في بني النوار بنت مجاشع ، فبلغ ذلك عطية بن جعال احد بني غدانة بن يربوع فقال: ومانت وهذا يابعيث. اتدخل بين بني يربوع وانت رجل من مجاشع ، فبلغ ذلك جريراً ، فأنشأ يقول :

طاف الخيال وأين منك لماما ... فارجع لزورك بالسلام سلاما

حتى وصل الى قوله :

واذا انتحيتكم جميعاً كنتم ... لامسلمين ولاعليّ كراما

ولقد لقيت مؤونة من حربنا ... نزلت عليك والقت الاجراما

مهلاً بعيث فأن امك فرتنا ... حمراء اثخنت العلوج ردامـا

كانت مجربة تروز بكفها ... كمر العبيد وتلعب المهزاما

(١) الهجاء - سلسلة فنون الادب العربي الفن، الغنائي (٦) / ٥٧ .

(٢) نقائض جرير والفرزدق - ابو عبيدة ٣٨ - ٤١ .

هنا يتساءل المرء ماالذي حمل جريراً على ان يقحم نفسه ويتطوع مدافعاً عن يربوع ؟ ألمجرّد كراهية لمجاشع ؛

ثم ماالذي ألجأه الى ان ينحرف الى أم بعيث فيصفها هذا الوصف الشائن ويرميها بما هي منه براءً ومما يلاحظ ايضاً – من غير تبرير لهذا الموقع – انه بدأ بدءاً يمكن ان يدخل في باب الهجاء العام .الااننا حين نريد ان نكشف عن انحراف طويته وضعنا اصابعنا على المواطن الدالة وهي الاقذاع غير المبرر في الفحش ،

وهذا مانود ان نكشف عنه ونحن ماضون مع شواهده الشعرية التي تلي تباعاً ، ومسكينة فرتنا هذه حين ابتليت بهذا اللسان الحاد الذي بلغ في الاعراض ولوغ الذئاب في الدم العبيط (١) .

يقول جرير :

سيخزى ويرضى باللفاء ابن فرتنا
وكانت غداة الغب يوفى غريمها (٢)

اذا هبطت جو المراغ فعرست
طروقاً واطراف النوادي كرومها

فكيف ترى ظن البعيث بأمه
اذا بات علج الاقعسين يكومها

اذا استنّ اعلاج المصيف وجدتها
سريعاً الى جنب المراغ جثومها

ضروط اذا لاقت علوج ابن عامر
وأينع كراث النباج وثومها

بني ماللك ان البغال مجاشعاً
مباح بحمراء العجان حريمها (٣)

---

(١) نقائض جرير والفرزدق – ابو عبيدة ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) اللفاء : الشيء القليل ... انها كانت تفي غداة الغب لمن وعدته – المصدر نفسه وكذلك الصفحة .

(٣) حمراء العجان : المعنية بها ام البعيث .

واذا عدنا الى ابيات البعيث التي ناجز بها جريرا فمعانيها لاتتجاوز انهم رعاة المعز ولئام ، ولايأتي حديثهم بخير ، وان الاحساب منقطعة بهم (١) .

ان لجرير من الشاعرية ما يستطيع ان يثبت بها جدارة ويخلب الالباب اعجاباً ، وله من القدرة على التصرف في المعاني والصور ما يغنيه عن الولوج في هذه الابواب ، ففي لامية له يجيب البعيث وينهجو الفرزدق قوامها تسعة .وعشرون بيتاً من ارق الشعر واعذبه معنى ومبنى ، ثم يكبو به الجواد على حين بغتة فينزلق المتزلق الذي يجر عليه المعرة ، ويذهب بمروءته ويعكر عليه اجواء تقواه وساعات عبادته : يقول (٢)

اذا سار في الركب البعيث عرفتم ترمز حمراء العجان على الرحل
اذا لقيت علج ابن ضمعاء بايعت بشق استها اهل النباج وما تغلي
فبانت نوار القين رخو حقابها تنازع ساقي ساقها حلق الحجل
تقبح ريح القين لما تناولت
مقذ هجان اذ تساوفه فحل
فأقسمت ما لاقيت قبلي من الهوى
وأقسمت مالاقيت من ذكر مثلي

وجعثن اخت الفرزدق قد نالها جرير بتارص القول بهتانا لالشيء الا ان المعركة تتطلب ان يحقق جرير غلبة على خصمه التقليدي الفرزدق ويصيب منه مواطن الأيذاء .
يقول جرير (٢)

بات الفرزدق يستجير لنفسه
وعجان جعثن كالطريق المعمل
اين الذين عددت ان لا يدركوا
بمجر جعثن باابن ذات الدمل
اسلمت جعثن اذ يجر برحلها
والمنقرى يدوسها بالمنشل

---

(١) المصدر نفسه ١٠٨ - ١١٠ .
(٢) المصدر نفسه ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

اترى كذلك كانـــت جعثـــــــــن ؟

ان المصادر تؤكد عفتها وسلامة عرضها ، وبعدها عن مواطن الشبهات، فضلاعن ان يكون عجانها كالطريق المعمل ، او ان يدوسها المنقرى بالمنشل . وقد سبقت الاشارة الى ماقال ابو عبيدة معمر بن مثنى «ويقال ان جعثن كانت امرأة عفيفة مسلمة صالحة»(١)

وجدير بنا ان نشير الى ان جريرا يبدأ نقائضه بالمادة التي يمكن أن تكون مقبولة في مقياس الهجاء العام ، ولكنه ينحرف انحرافاً مفاجئاً ليعرض مادة لاتتصل بما بـــدأ ؛ وكأنه حديث موتور لايقيم لأعراض الناس وزناً ، ولا يتقي الله في المحصنات الغافـلات فقد بدأ جرير النقيضة بقوله (٢)

قتل الزبيـــر وانت عـاقد حبـوة تبا لحبوتـــك التي لم تحـلـــل

نعم : يمكن ان يكون ذلك موضع المؤاخذة في مقاييس النجدة والنخوة العربية ثم يعرض بعدم وفائه في شطر بيت اذ يقول : (٣)

وافـاك عـــذرك بـالزبـيـر عـــلى مـنـــى

.....

وعلى حين غرة تنزلق به القدم الى كلمة البيت بقوله مقذعة لا تتسق مع الشطر قبلـه معنى أو فنا ، حيث يقول :

.....

ومجر جعثكم بـــذات الحـرمـل

وهو يعلم علم اليقين ان مجر جعثن ليس بذات الحرمل : كما ولا شأن لجعثن بكل مـا يجري من سقط المهاجاة بين جرير وأخيها الفرزدق ، وربما تكتم غيظها على مضضـــن او هي غاضبة على اخيها الذي يقارع جريرا فيغريه بهذا العبث الموجع .

ويوغل جرير في الحاق الاذى بجعثن في قوله وهو يهجو الفرزدق (٤)

وتمـــــدح يابن القين سعـــدا وقـــد تـــرى

اديملك منـــها واهـــــيا غـيـر سالـم

---

(١) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ٢٢٢ .

(٤) المصدر نفسه .

تبرئهم مـــن عقـر جعثـن بـعـدمـــا
اتتـك بمسلـوخ البظـــارة وارم

تنـــادي بـنصف الليـــل ياليل مـــجـاشـــع
وقـد قشروا جـلد استهـــا بالعجارم

ومما نود ان نبدأ القول فيه ونعيد ان الانتقالة المفاجئة من حديث المناقضة العام الى هـذا اللون الذي يتنافى مع القيم والمبادىء الدينية والخلقية هي الظاهرة التي شخصناهـا في مناقضاتـه وعلى اساسها ادرنا حديثنا عن نفسيته .

واضافة الى ماسلف في هذا الباب نذكر – على سبيل المثال – مايأتي :

قال بهجو البعيث : (١)

رأى الموت منـا مـن يـروم قناتنـا
فغير ابن حمـراء الـعجان يرومهـا

سعـرنا عـليك الحـرب تـغلي قـدورهـا
فهـلا غـداة الـصمتيـن تـديمها

تـركناك لاتـوفي بـزنـد اجـرتـه
كأنك ذات الـودع أودى بـريمها

ثم تحدث الانتقالية المفاجئة :

يـعد ابن حمـراء الـعجـان لـزنيـة
اذا عـد مـولى مـالك وصمـيمها

لـه أم سوء ساء مـا قـدمـت لـه
اذا فارط الاحـساب عـد قديمها

فكيف ترى ظـن البعيـث بأمـه
اذا باب عـلج الأقـعسين يكومها (٢)

ونحن بدورنا نتساءل : اكانت أم البعيث كذلك ؟

أم هي الرغبة المحضة في الايذاء والايقاع بالخصم .

ولجرير رائية في هجاء الفرزدق مطلعها :

---

(١) المصدر نفسه ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) يكومها : يعلوها .

سمت لي نظرة فرأيت برقاً تهاميا فراجعني ادكاري

وردت فيها الفاظ في غاية البذاءة لم ارد ان اوردها في الوقت الذي نجد نقيضة الفرزدق خالية من هذه الصراحة ، وان كان يكتفي فيها باللمحات الخاطفة .

ولم ينج الأخطل في هذه المعركة من قذف جرير لمحصنات نساء تغلب : يقول جرير (١)

نبئت تغلب ينكحون رجالهم ويرى نساؤهم الحرام حلالا

المعرسين اذا انتشوا ببناتهم والدائبين اجارة وسؤالا

وفي هذا ابغال مابعده ابغال في ايذاء نساء تغلب كما يصوره جرير افتراء محضا لايدعمه دليل الاهوى نفس استمرأت الخطيئة وأوضعت في الفتنة حتى بات المرء تعاف نفسه مما ترك جرير في هذا الميدان من مادة قاسية الوقع تنبو الأسماع عن الاصغاء اليها فضلا عن اشفاق المرء على من نال منهم جرير نيلا غير جميل ، وكان بوسعه — وهو الشاعر الفنان — ان يسلك الى اداء مهمته الفنية غير هذه السبيل الوعرة ، وأن يركب غير هذا المركب الصعب ، مما جعلنا نعيد النظر في تقويمنا لبعض شعرائنا وفق اسس مبدئية سليمة ومعايير خلقية لا نزال نقيم لها اسمى الاعتبار في حياتنا الراهنة .. وفي ضوء هذه المبادىء والمعايير كان تقويمنا لنفسية جرير من خلال نقائضه ، وعسى ان نكون قد وفقنا الى هذا التقويم .

---

(١) نقائض جرير والاخطل — ابو تمام ٨٧ .

مصادر البحث ومراجعه

١ – القرآن الكريم

٢ – اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . د . محمد مصطفى هـــدارة . دار المعارف بمصر ١٩٦٣

٣ – اصول علم النفس – د . احمد عزت راجح – المكتب المصري الحديث الاسكندرية ط٩/ ١٩٧٣

٤ – الاغاني – ابو الفرج الاصفهاني – طبعة دار الكتب

٥ – تاريخ الادب العربي – بلاشير – مجلد ٣ ترجمة د . ابراهيم الكيلاني – منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي السوري – دمشق ١٩٧٤.

٦ – تاريخ النقائض في الشعر العربي – احمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ط٣ /١٩٦٦

٧ – التطور والتجديد في الشعر الاموي . د . شوقي ضيف – دار المعارف بمصر.

٨ – الجامع الصحيح – الترمذي – تحقيق ابراهيم عطوة عوض – مطبعة البابي الحلبي بمصر جـ٤/ ط١/ ١٩٦٢

٩ – جرير – حياته وشعره – د. نعمان محمد امين طه .
دار المعارف بمصر – ١٩٦٨

١٠ – رحلة الشعر من الاموية الى العباسية – د. مصطفى الشكعة – دار النهضة العربية ، بيروت – ١٩٧١

١١ – صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار احياء التراث العربي . ط١/ ١٩٥٦

١٢ – طبقات فحول الشعراء – ابن سلام الجمحي . تحقيق محمود محمد شاكر – مطبعة المدني – القاهرة

١٣ – العصر الاسلامي – د. شوقي ضيف – دار المعارف بمصر ط٥/ ١٩٦٣

١٤ – العمدة – ابن رشيق القيرواني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – دار الجيل جـ٢/ ط٤/ ١٩٧٢ .

١٥ – من تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي والعصر الاسلامي – د. طه حسين – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٧٠

١٦ – نقائض جرير والاخطل – ابو تمام – دار المشرق – بيروت – عني بطبعها انطوان صالحاني اليسوعي

١٧ – نقائض جرير والأخطل – د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب – مكتبة المحتسب دار الفكر ١٩٧٢

١٨ – نقائض جرير والفرزدق – أبو عبيدة معمر بن المثنى – طبعة ليدن – ١٩٠٨ – ١٩٠٩

١٩ – نقائض جرير والفرزدق – دراسة ادبية تاريخية – د. محمود غناوي الزهيري – ط١ مطبعة دار المعرفة – بغداد ١٩٥٤.

٢٠ – الهجاء – د. سامي الدهان – سلسلة فنون الادب العربي – الفن الغنائي (٦) دار المعارف بمصر ١٩٥٧.

٢١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه – علي بن عبد العزيز الجرجاني – تحقيق وشرح محمد أبو الفضل – وعلي محمد البجاوي – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٦.